ا صطلح ا عرب :
ا عجم ا وحد صطلحات الكيمياء

ذ. عبد الهادي الادريسي (*)

إن مستقرئ تاريخ البشرية يلاحظ بلا شك أنه ما نشأت حركة نهضة في قطر من الأقطار إلا وواكبتها – أو سبقتها– حركة ترجمة نشيطة، تتساوى في ذلك الحضارات كلها، شرقية وغربية، قديمة وحديثة، ذات وازع ديني أو قومي أو اقتصادي.

وسبب ذلك أن الأمة الناهضة، لا بد لها من النهل من معين من سبقها من الأمم إلى تسلم مشعل الحضارة، وذلك حتى يتسنى لها الإفادة من تجارب تلك الأمم ومساهماتها في إغناء سجل الحضارة الطويل. ولا يتأتى ذلك إلا بالإقبال على تعلم وتعليم ما خلفته تلك الأمم من إرث علمي وفكري. ولا يتسنى ذلك التعلم والتعليم إلا بنقل ذلك الموروث إلى لغة الحضارة الوارثة، وليس من سبيل إلى شيء من ذلك آمن وأقل كلفة – مادية وإنسانية – من الترجمة.

وطبيعي أن تولي الأمة الآخذة بأسباب الرقي اهتمامها لترجمة العلوم قبل غيرها من المعارف، وذلك لأسباب برغماتية لاتخفى. ومعلوم أن العلوم عامة – والتطبيقية منها خاصة– تكون حبلى في العادة بكم يزيد أو ينقص من المصطلحات ولعل القائمين على ترجمة العلوم في كل مصر وعصر، لو سئلوا عن العقبة الكأداء التي تعترض عملهم وتلتهم مجهودهم ووقتهم التهاما، لأجابوا دون تردد : المصطلح.

وهم يلجأون في العادة، عند معالجتهم مشكلا مصطلحيا، إلى وسائل عددها المنظرون في سبع،وربما زاد بعضهم أو نقص قليلا. لكن أبرز تلك الوسائل اثنتان هما الترجمة والانتظام. ونعني بالترجمة إيجاد مقابل – مرادف– للحد الأجنبي، مرادف أصيل في اللغة الناقلة يشترك والحد الأجنبي في احتمالهما المعنى نفسه، كقولنا "كتلة" في مقابل "masse"و"حجم" في مقابل"volume" ونعني بالانتظام أن تعمد اللغة الناقلة إلى الحد الأجنبي فتنتظمه داخل نسقها انتظاما، مدخلة عليه أو غير مدخلة تغييرات صواتية وصرفية. وهي العملية التي ندعوها تعريبا، ويدعوها الفرنسيون مثلا francisation أو بشكل أدق latinisation.

يكاد لا يختلف اثنان في أن الذاكرة تكون أحسن ماتكون حين يعضدها الفهم ويسندها، أي أن المتعلم قد لا يجد صعوبة تذكر في استحضار ما يفهمه، على حين يكون الأمر مختلفا حين يطلب منه تذكر ما لايفهم، فالمفهوم الجديد– وليكن حدا أو غيره– يكون أرسخ في الذهن، وأبقى أثرا كلما كانت الوشائج المنطقية أو الصواتية أو الصرفية التي تربطه بمفاهيم سبق تخزينها في الذاكرة، أمتن وأكبر عددا. ولا غرو، لأنه كان في المنظومة تقديرا قبل أن يحل بها فعلا. كما تبين ذلك الدراسات اللسانية الحديثة. أما حين تنتظمه الذاكرة أبتر من الوشائج، صفرا من كل علاقة تربطه بالمفاهيم سابقة التخزين، فإنه يظل تائها على السطح كالزورق تنقطع مرساته فيجول على غير هُدًى بين الزوارق الراسية،فلا يبعد أن يجرفه التيار، ولا يبعد أن يمّحى المفهوم إياه فكأنه ما كان.

أما حين تنضاف إلى ندرة أو غياب الوشائج صعوبة صرفية أو صواتية، كأن تكون الكلمة المطلوب تخزينها غريبة الوزن منكرته أو صعبة النطق يلتوي اللسان بها، فإن التخزين يصبح أصعب والنسيان أقرب.

* أستاذ بالمدرسة العليا للأساتذة بتطوان.

والواقع أن المتأمل في المصطلح المعرب يجده يجمع في الكثير من الأحوال، بين العيبين أعلاه، ويشكو في أغلبها من أحدهما على الأقل. فجل المصطلحات المعربة تنقل شحنات دلالية جديدة، قلما يجمعها أكثر من رابط – دلالي بدوره– بما سبقهامن مفاهيم، وهي كثيرا ما تكون صعبة النطق لا تطاوع صرفا ولا صواتة عربيين.

فإن اتفقنا على كل ما سبق، وأضفنا إليه البديهية القائلة بأن للذاكرة دوراً رئيسيا في عملية التعلم، وضحت ضرورة الاهتمام بترجمة المصطلح الأجنبي عوض تعريبه، تسهيلا لتدريس العلوم في مدارسنا، وسعيا نحو تحقيق الهدف الذي يجب على كل مرب في بلادنا أن يضعه نصب عينيه، ونعني تعريب تدريس العلوم في جميع أسلاك التعليم في أرجاء الوطن العربي.بل إن الضرورة لتدعو حتى إلى إعادة النظر في بعض المصطلحات المترجمة التي يبدو أن واضعيها قد جعلوا من الدال الأجنبي منارا يهتدون به في علمهم، وكأنه السبيل الوحيد والأوحد لمقاربة حقوقهم العلمية والتعبير عنها، على حين يثبت القليل من التمحيص الإثالي عكس ذلك تماما. وكان حريا بهم أن ينتهجوا في وضعهم المصطلح نهجا مدلوليا (onomasiologique) فلا يلجأون إلى النهج الدالي (sémasiologique) إلا إذا انسدت السبل بسابقه، ذلك أن وضع المصطلح عمل يدخل في نطاق اجتهاد واضع القاموس (le lexicologue)، لا في مجال عمل المعجمي (le lexicographe).

وبعيدا عن كل مالتيسية لغوية، فإننا نعتقد أن لا ضرورة تدعو، من جهة أخرى، إلى وضع أكثر من مقابل للحد الواحد. كما أنه تجب الإفادة من إمكانيات التوليد التي تزخر بها اللغة العربية، وهو ما من شأنه أن يعفي المتعلم من بلبلة لا طائل وراءها. وأن يغني في الوقت ذاته لغته، ويشحذ فيه ملكات – كالاشتقاق الصرفي والمعجمي– تعد من صميم خاصيات اللسان العربي.

فالمعجم الموحد لمصطلحات الكيمياء يغفل – على سبيل المثال– كلمة "مجهر" لكنه يورد "مجهري" في سياق خاص، فيضع "مجهرية" في مقابل "microscopique"لكنه يضيف "مكروئية" والأمثلة على ذلك كثيرة. كما أنه قد يورد مرادفين عربيين للكلمة الأجنبية الواحدة، ولا يفوتنا أن ذلك قد يكون ضروريا في بعض الحالات. فكلمة "formation" الفرنسية قد تعني – حسب السياق– "تكون" أو "تكوين" فيكون من التقصير عندها أن لا يُستفاد من إمكانية تتيحها اللغة العربية، لكن على ألا يجاوزه ذلك إلى غيره فلا داعي مثلا لأن نضع "قَسَّى" و"صَلَّدَ" "معا في مقابل "durcir" ونغفل في الوقت ذاته سرد المعنى الأول لكلمة"durcir"و هو "صَلُبَ" و"تَصَلَّبَ" (devenir dur) والأمثلة على ذلك كثيرة أيضا.

غير أن هذه وغيرها من الملاحظات – كتبويب المعجم مثلا – تشكل موضوعا قد يكون له حديث. وعودة إلى موضوعنا، موضوع المصطلح المعرب.

قلنا إن الاهتمام ينبغي أن ينصب على ترجمة المصطلح الأجنبي قبل اللجوء إلى حل آخر وهو تعريبه، أي انتظامه في النسق العربي وبالإضافة إلى الاشتقاقين –الصرفي والمعجمي– اللذين تعتبر الكلمة المولدة تقاطعا لهما، فإن اللغة العربية تتيح إمكانات توليدية أخرى ليس أقلها الاستعارة والمجاز بأنواعه. بل حتى النحت أبانت فيه العربية إبان عصرها الذهبي عن مرونة تزيد من دهشة المتأمل فيها من إحجام واضعي المصطلح اليوم عن استعماله، خصوصا عند ترجمة حدود مركبة أو منحوتة بدورها، وقد تبدو مثلا كلمة "الحرنأ" المكونة من الأحرف الأولى التي للكلمات المركبة لترجمة A.D.N غريبة لأول وهلة، لكنها ما كانت لتبدو بهاته الغرابة لو ورثناها عن السلف، هذا إلى أن النحت في العربية يقع في الفعل نحو بسمل وحوقل، وفي الوصف كالصلدم للشديد الحافر من الخيل (نحت من "صدم" و"صلد")، وفي الاسم كجلمود (من جمد وجلد) ونسبة كقولك هو حضرمي أي من حضرموت أو طبرخزي أي

مـن طبرسـتان وخـوارزم، وعـبدري مـن عـبد الدار ومرقسي من امـريء القيـس. ونقـول طَلْبَق أي قال: "أطال الله بقاءك" وبَأْبَأ أي قـال: "بـأبي أنت وأمي"، ونوه أي" قال إن وإن وإن..."، ونحـت المحدثـون بـرمائي وحويمـن، فلماذا نحجم نحن اليوم عن الإفادة من حلول تضعها اللغة بين أيدينا، فلا تستعمل مثلا " حديكـي" مقـابلا ل "ferrique" : تمييـزا له عـن حديـدي ferreuxو"نُحـاكي" في مقـابل cuivrique تمييـزا له عـن نحاسي(cuivreux) ؟.

فـإذا مـا انسـدت السـبل، وقصـرت الـلغة عن التعبير، لجأنـا إلى إثالة المصطلح المراد نقله نستقرئها، فقد تتمخض عما يعـين عـلى تصـور مقـابل مناسـب وسـنرى مـثالا لذلـك حـين الحديث عن المعادن والأحماض.

فـإذا لم تفـد الإثالـة بشيء، أمكن اللجوء إلى التعريب، لكـن شـريطة إخضـاع المـنتظم الجديـد للنسق الصرفي والصواتي العـربي، حـتى تتسـنى النسـبة إليـه والاشـتقاق مـنه وتصغيره والنعت به. فكلمة "أكسجنة (oxygénation) "حتى ولو قبلنا بهـا على علاتها، لا تعطي مجالا للنسبة ولا للاشتقاق الصرفي. وكـلمة oxygénateur عـلى علاتهـا، لا تجد مقابلا لها إلا "جهـاز تهويـة"، وذلـك لأن وزن "مُفَعْلِلُ" الذي كان حريا بأن يكـون ذاك المقـابل هـو مستعمل لغير ذلك إذ يقصد ب"مؤكسد" "نقيـض"مختزل"، ولا يخفى الخلط الذي يخشى من ذلك. هذا إلى أن تعـبير "جهـاز تهوية" لو أُخْضِع للترجمة المراجعية (la t.rétrospective) لأعطانـا "aérateur"، أو"ventilateur"، لا "oxygénateur"، وفي هـذا وحـده مـا يكفـي للكشـف عـن الخلل الناتج عن هذا الاختيار.

والحـق أن عمـلية الاقـتراض أو الانـتظام هـي عمـلية صـاحبت الترجمـة منذ بداياتها، إلا أن المترجمين – مترجمونا في الماضي ومترجمو الغرب اليوم – حرصوا دوما على إخضاع ما يقترضـونه مـن حـدود لنسـقية الـلغة الناقـلة. فقـد أخذ القرآن الكـريم عـن اللاتـنية stratum فقبـلها سراطا وأخذ الإيريز عن الفارسـية فقبـلها ابريـزا. وأخذ الكيميائيون العرب nitron عن الإغـريقية فـنطقوها نطرونا و alkhimia فصارت لديهم كيمياءً قـبل أن يعـاود الغرب الناهض أخذها عنهم لتصبح alchimie ثم chimie وأخذ الغرب عنا الكحول فأصبح Alcool والحبل فصـار cable، إلى غير ذلك من الأمثلة التي تكاد لا تحصر لها عدداً. حتى أسماء الاعلام أخضعت للضوابط الصرفية والصواتية ذاتهـا، فأصـبح césar أيـام العـرب القدامـى قيصـر، وصـار hieraclès على عهد النبي (ص) هرقل، وkhasroès كسرى، وأنكـرت أذن معاصـري هـرون الرشيد اسم القيصرNicéphore فقلـبوها نقفـور، وجاء في الخطبة المنسوبة إلى طارق بن زياد أنه "حــامل عــلى طاغيــة القــوم لذريــق (rodrigue) فقاتلــه". وأصـبحت جزيـرة sicilia صـقلية ثـم جـاء les Mongols فدعاهم العرب بالمغول وثقلت "ابن رشد" على اللسان الافرنجي فصـارت Averroès وابـن سينا فأصبحت Avicene وغيرها كـثير. لم نسـمع يومـا عـن مقـترض فرض على اللغة التي ينقل إليهـا حـروفا لا يـنطقها أبـناؤها، ولا جعـل الدارس بها يقف حائـرا بـين اخـتيارين أحلاهما مر. كما يقع الآن لدارس العلوم لديـنا حـين لا تجـد لغته ما تقدمه له في مقابل السابقة "poly "مثلا سوى تعريب مباشر يفرض عليه نطق حرف "P" الذي لا يدخل في نسق لغته الصواتي لأنه إن نطق الباء باءً عربية دخل في فصـل لعلـه أقـرب إلى تخصص الكلي والمسالك منه إلى معنى التعدد المقصود من"poly".

لا عيب إذا في الاقتراض إن لم يجد المترجم عنه بديلا، لكن شريطة عدم تخطي الحاجزين الرئيسين اللذين تحيط بهما كـل لغـة نفسـها اتقـاء الضـياع. ونعني بهما الحاجز الصرفي – الـنحوي (le rempart morphosyntaxique) وقريـنه الأهـم مــنه في اعــتقادنا : الحاجــز الصــوتي (le rempart phonologique).

وقـبل أن نخـتم هاته الكلمة الموجزة نسرد بعض الأمثلة الـواردة في المعجـم الموحـد، مـبدين بعـض مـا نخاله ملاحظات

وتصويبات نوردها عن غير ترتيب، لكن دون أن يفوتنا التنويه بالجهد المشكور الذي بذله واضعو المعجم، والعناء الذي تحملوه في ذلك فجزاهم الله عنا جميعا – معلمين ومتعلمين – خير الجزاء وأجزله.

ونبدأ أمثلتنا بالأحماض(les acides)

فالمعجم الموحد يضع "أميني" في مقابل"aminé" وهيدروكلوريك في مقابل chlorohydrique (ونلاحظ هنا أن التعريب هو تعريب لhydrochloric الإنجليزية لا ل chlorohydrique الفرنسية، وهذا موضوع آخر...)ويضع المعجم في مقابل" nitrique" "نتريك" وفي مقابل " phosphorique"فوسفوريك". بيد أن عودة إلى الإثالة (étymologie)وحدها كافية لتبيان أن أصل كلمة "أميني" هو الإله المصري أمون، وأن" كلور" أصلهkhloros الإغريقية بمعنى "أخضر"، وأن كلمة النطرون توجد من أمد بعيد في القواميس العربية، ويدعوه أصحاب المعاجم باسم عربي هو "البورق"، وأن الفوسفور أصلها كلمة اغريقية تعني "الوهج" فلم لا يبحث واضعو المصطلح العرب في هذا الاتجاه، خصوصا وأن لهم سابقة في ذلك تتمثل في الحمض النملي acide) (formiqueوحمض الزبدة (acide butyrique) كما أن لهم سابقة مماثلة في اليخضور (chlorophile) ؟.

وننتقل إلى المعادن فنجد الظاهرة نفسها، حيث عوض الاهتمام بملء الخانات الاشتقاقية الدلالية والصرفية، نرى واضع المصطلح يسارع إلى الاقتراض دون أن يتساءل هل الحد الأجنبي الذي يقترضه يعبر عن الحقيقة العلمية تعبيرا دقيقا يبرر ذلك الاقتراض. فالكروم مثلا أصلها " khrômos "اليونانية بمعنى "لون"، واليود مشتقة من (iodès) بمعنى "بنفسجي". أما البروم فأصلها "brômos"وتعني بكل بساطة "العطانة" أي الرائحة غير المستحبة.

فما المانع من أن نبني بدورنا على النسق المنطقي نفسه حدودا أو كلمات عربية لتعريف أو نحت المسميات إياها، مع الإبقاء طبعا– ولأسباب أدبية واضحة – على الحدود المعرفة بأسماء أعلام مثل المعادن: -francium- américanium . einsteinium؟

لماذا نستعمل الحرف اللاتيني "U"-الذي لا يدخل بالمناسبة في النسق الصواتي العربي – في تعابير من نحو " aimant en U"أو "circuit en U"حيث نقول: مغناطيس على شكل Uأو دارة على شكل U، ولا نستعمل كلمة الحذوة – حذوة الفرس – التي تؤدي المعنى نفسه وبطريقة أبلغ؟

لماذا لا نستعمل نوشادر (ammoniac) التي عربها الأسلاف، لا سيما وأنها تتيح بإمكانية كتابتها بواو أو من دون واو – التمييز الخطي (graphique) بين ammoniac = NH3)و(ammoniaque = NH4+) ؟

لماذا لا نفيد من الأوزان حاملة الدلالة من بين الأوزان العربية. كوزن "فعول" (للمطاوعة) كـ "سحوب" عوض "قابل للسحب" في مقابل ducile، و"تفاعلية" (للقابلية) كـ"تأثرية" في مقابل susceptibilitéعوض "قابلية التأثر"؟.

لماذا لا نفيد من النحت في حل المشكل كذاك الذي تضعه التعابير المركبة (les paraphrases) في تمردها على النسبة والتصغير والوصف، فنضع مثلا "قَدَّرَ" في مقابل "court-circuiter"عوض "قصَّرَ" التي لا تفي بالمطلوب (قدر : قَصَّر الدارة)؟ لماذا وضع السلف "صقلية" مقابلا ل Sicilia : لا عن عجز عن نطقها، ولكن فقط لكون نطقها كما هي "صكلية" ينطوي على ما يشبه الإيحاء بعيب في النطق كان العرب يستقبحونه حيث كان ملازما للعبيد والموالي، ونعني به العجز عن نطق القاف، فقلبوا الكاف قافا وزادوا شدة فوق اللّام لتصبح الكلمة "صقلية" كلمة عربية أصيلة. نقول لماذا لا نحذو حذوهم حيال هذه الكلمة مثل silice فنقلبها "صلّق" مثلا، خصوصا وأن الصَّلق يحتمل من بين ما يحتمل من المعاني معنى الضرب بشدة ومعنى تصريف الأسنان، وفي هذا ما يطابق الاستعمالات الأولى لهذا الحجر؟

لـماذا لا نسهل على متعلمينا الربط المنطقي والصرفي بين الالكـترون والكهـرباء، كما تربطهما اللغات الأخرى ببعضهما، فـنقول "كهـيرب" في مقـابل électron خصوصـا وأن اللاحقـة "on"هي للتصغير مثل :

mouche → moucheron = petite mouche,
nappe → napperon = petite nappe

ونفـتح في الوقـت ذاتـه لأنفسـنا بـاب الاشـتقاق فـنقول كهيربيات في مقابل électronique وهلم جرا؟

لـماذا نضـع "غـير متوقع" مقابلا ل imprévisibleعلما أن الترجمـة المراجعية تعطينا، حين نخضع لها "غير متوقع": imprévu ونضيع في الوقت ذاته على أنفسنا فرصة الإفادة من فكـرة الفجـاءة التي تعبر أحسن عن المفهوم imprévisibilité وكـذا مـن "إذا" الفجائيـة، فـنقول مـثلا : "ظاهـرة إذائيـة أو فجائية" تعريبا لتعبير"phénomène imprévisible" ؟.

وللمهـتمين بدراسـة الخـلية (cytologie) نقـول : ما المـانع من استعمال "نواء" عوض "نواة" عند الخلية، ليصبح ما هـو للخـلية "نوائـي" أو "نَوَئـي" حـتى نميـزه عـن نـووي (nucléique/nucléaire)،و"رواء" بالنسـبة إلى حشـو الخـلية حـتى نـتفادىما يـتولد عـن اسـتعمال "سـيتوبلازم" من مشاكل صـواتية وصـرفية، ثم "لحاء" بالنسبة إلى غشائها حتى نتفادى "السـيتوبلازمي"، خصوصـا وأن الاختيارات المذكورة كلها تجد تـبريرا لغويـا ومنطقيا. فالشاة تجمع على شياهٍ وشاهٍ وشاءٍ، وقد تسـتعمل هـذه الجمـوع كـلها استعمال المفرد فنقول "نفق الشاء" بمعنى "ماتت الشياه" وذلك حين نعبر عن جمع معنوي (collectif) ولهذا يجوز استعمالها للمفرد المطلق، ولذلك فكل من نـواء ونـواة يحتملان المعنى نفسه، إلا أن استعمالهما كلا لغاية يضـع حـدا للـبس المكـن عـند اسـتعمال كـلمة واحـدة لغايتين دلاليتين اثنتين. أما "سيتوبلازم" ف "cytos" تعني "خلية" أو "غـرفة"، و "plasma" تعـني "الشـيء المُصَـنَّع" (chose façonnée) أي أن "سـيتوبلازم" تعـني "إثاليا" الشيء المصنع الـذي للخـلية". فتعـبير "الـرواء" هـو أقرب إلى وصف الحقيقة العـلمية، خصوصـا وأنـه يـتيح عبر إواليات التداعيات الدلالية بفكرة الارتواء (turgescence) والانخواء (plasmolyse) التي هـي أحوال تطرأ على الخلية. وأما "لحاء" فهو بدوره أقرب إلى التعـبير عـن الحقيقة العلمية من "غشاء" ومن "membrane"، ذلك أن غشاء الخلية يؤدي – كما هو معلوم– عمل اللحاء لدى الشـجرة، مـن وقاية وصلة وَصْل بين داخل الخلية وبين الفضاء المحيط.

ولأهـل الاهتمام بالجغرافيا نقول إن كلمة "تكتونية" لا تعـدو إثاليا أن تعني "ماهو من صنع أو من اختصاص النجار". فهـلا بحـثوا لها عن مقابل ممكن في لغتنا عوض الكلمة الحالية الـتي يذكـر المـرء كـم بـدت لـه غريبة بل ومضحكة يوم سمعها لأول مرة وهو بعد تلميذ في الثانوي؟

ولأهـل الاقتصـاد نقـول: أليس في "التخصيص" (مقابلا ونقيضـا للـتعميم) مـا يغـني عن الخوصصة والخصخصة وغيرها من الكلمات المنكرة؟